من تراب الطريق (٤٧٣) انحراف الرؤية !(*)

إلى هذا الحد الغريب المدهش العجيب ، يمكن أن تنبهم الرؤية وأن تصاب بالحَوَل الشديد ـ تبعًا للهوى والمصلحة ، والأكثر غرابةً وعجبًا وإدهاشا ـ ألاّ تفطن إلى ما فيها ـ أى الرؤية ـ من انبهام وحَوَل يغلفهما العماء !!

خرجت بهذا الانطباع ، وهو غير جديد على أحوال الناس ، حين طالعت مؤخرًا مذكرات أنتونى إيدن رئيس الوزراء البريطانى الأسبق عن سقطته الكبرى فى أزمة السويس سنة ١٩٥٦ .. بين مكتبتى العدد / ١٤٤ من كتب سياسية التى كانت تصدرها وزارة الإرشاد القومى بقروش زهيدة .. العدد يرجع إلى مارس ١٩٦٠ ، مترجم عن مذكرات إيدن بمقدمة للأستاذ محمد حسنين هيكل ، والثمن (١٠) قروش .. لم أفكر فى قراءته على مدى خمسين عامًا ، دعانى لذلك أننى عشت أحداث هذه الأزمة ساعةً بساعة ، وقرأت إبانها وبعدها مئات بل آلاف الصفحات التى تناولتها من شتى جوانبها وتوجهات أصحابها على اختلاف أغراضهم وأهوائهم ومشاربهم ، أو تحليلاتهم وآرائهم ونظرياتهم ، فوجدت من إضاعة الوقت أن أفرد يومًا أو يومين لمطالعة مذكرات يريد صاحبها ـ أن يبرر فعلته أو سقطته أو خيبته وسقوطه .. فمنطق التبرير لا بد أن يكون دافع وغرض أمثال هذه المذكرات .

ويبدو أن استرخاء الصيف وعدم اعتيادى على الإجازات ، قد أخرجانى من عزوفى عن تناول هذه المذكرات ، ولست أريد هنا أن أعرضها لك أو أن

(*) المال ٣/٨/ ٢٠١٠ .

أتناولها بالتعقيب .. بقدر ما أريد أن أنقل إليك الانطباع الذى خرجت به عن حَوَل وانحراف الرؤية وعجائبها حين تحكمها الأغراض والأهواء ، وكيف أن هذا الداء يكاد لا ينجو منه أحد ، حتى كبار الساسة والزعماء والرؤساء وربما الحكماء !

لا أقصد الدوافع التى اختلفت وتختلف من دولة إلى أخرى ، فطبيعى أو مفهوم أن تجرى كل دولة وراء مصالحها ، فترى بريطانيا ما يهدر مصالحها الاستعمارية فى البلدان التى تحتلها أو لها بها قواعد فى المنطقة العربية وفى أفريقيا وآسيا ، وأن تخشى فرنسا من امتداد أثر قرار الرئيس عبد الناصر إذا نجح فيه ، إلى ما تواجهه بالجزائر وفى الموقف الفرنسى بأكمله فى شمال أفريقيا ، وأن ترى الدولتان أن الجانب «الدولى» للقناة هو المدخل الصحيح لإدارة الأزمة والترتيب أو التبرير لاستخدام القوة وشن الحملة التى شاركتهما فيها إسرائيل ، بينما تتحفظ الولايات المتحدة على المنظور الدولى للقناة ، لا لعلّة سوى أن لها وضعًا خاصًا فى قناة بنما .. فهى مسألة خاصة بين حكومتى أمريكا وبنما بمعاهدة معقودة بينهما وحدهما .. ومن ثم فإن أمريكا تحب وتحرص على تكريس معنى أن هذا الممر المائى أمريكى وليس دوليًا .. وتفصح من أجل ذلك لحلفائها عن رغبتها فى التفرقة ـ بوضوح وصراحة ـ بين موقفها الممتاز المتميز فى قناة بنما وبين التعقيدات الدولية المتعلقة بقناة السويس .

هذا مفهوم ، وهو ليس مرادى هنا ، ولا يتسع لـه هذا الحيز.. ولكن لفتنى وأنا أقرأ المذكرات منطق أحول وعبارات ضريرة وردت بالمذكرات على لسان إيدن أو دالاس أو بينو الذى تبنى أن حكومته الفرنسية مجمعة على اتخاذ عمل سريع وحاسم لأن الفرنسيين هم الذين بنوا القناة .. ولم ير

السيد بينو ـ فى منطقه هذا الأحول ـ أن قناة السويس فى أرض مصرية ، وأن حفرها ـ لا بناءها ـ كان بسواعد آلاف المصريين الذين مات منهم من مات فى عمليات الحفر اليدوى المضنية .. وزاد بينو على ذلك أن ما أجراه الرئيس ناصر إجراء انتقامى لرفض تمويل سد أسوان ، وأن أمريكا هى المسئولة عن هذا القرار ، ومن ثم يجب ألا تخلى نفسها عن الاهتمام بعواقبه ، بينما يرى جون فوستر دالاس ومعه ميرفى ـ أن إجراء عبد الناصر لم يكن انتقاميا وأنه كان يفكر فيه من زمن طويل .

مرة ثانية ، ليس مرادى هنا مناقشة أمثال هذه الرؤى ، وإنما أردت أن أتوقف عند بعض العبارات التى وردت بالمذكرات .. يورد إيدن بإحدى برقياته المبكرة : «إن رجلا له سجل ناصر يجب ألا يُسمح له بأن يطبق يده على رقبتنا! » ويورد فى برقيته إلى أيزنهاور فى ٢٧ يوليو «يجب أن نكون على استعداد لاستخدام القوة لإعادة ناصر إلى رشده» .. وكأن القرارات الوطنية فقدان رشد ! بينما يقول جون فوستر دالاس فى اجتماعه الأول بوزراء الخارجية فى أول أغسطس : «يجب أن نجد وسيلة نحمل بها الرئيس ناصر على أن يلفظ ما يحاول ابتلاعه» .. توقفت طويلا عند وصف العمل الوطنى الذى اتخذه الزعيم جمال عبد الناصر بتأميم القناة ، بأنه قضمة لا يجوز تركه لابتلاعها ، وأنه يتعين الوصول إلى إجباره على أن يلفظ ما يحاول ابتلاعه . ولفتنى أكثر كيف راقت هذه العبارة للسير أنتونى إيدن ، فظلت ـ كما يروى ـ تدوى فى أذنيه شهورا ، مع استعماله تعبير «التقيؤ» بدل «الابتلاع» ، فيقول إيدن إن الرئيس عبد الناصر «لا بد أن يحمل على أن يطرش قناة السويس ولا يبتلعها! » .

وتفهم طريقة تفكير هؤلاء ، حينما تطالع خوالج نفس أنتونى إيدن التى وصفها بقوله تعقيبا على الموقف الأول لدالاس وحكومته :

«وأحسست براحة كبيرة فى ذلك المساء ، برغم اختلاف نظرتنا عن نظرة الأمريكيين واختلاف تقديرنا لعامل السرعة والعجلة عن تقديرهم ، ولكن إذا كان لابد أن «يطرش» الرئيس ناصر فى النهاية ما يحاول ابتلاعه ، فإن النتيجة الواضحة فى هذه الحالة أنه لن يتمتع السارق بما سرق».

وهكذا ، فى المنطق الغربى ، صارت القناة المصرية المحفورة بسواعد مصرية فى الأرض المصرية ـ صارت ملكا لفرنسا لأنها التى بنتها (؟!) ، وصار قرار التأميم «قضمة» يحاول عبد الناصر ابتلاعها ويجب أن يُحمل على أن يلفظها ، وفى عبارة السير أنتونى إيدن أنه يجب أن «يطرشها» ولا يبتلعها ، وصارت القناة «نهيبة» وعبد الناصر «سارقًا» لا يجوز أن يتمتع بما سرق!!!

إلى هذا الحد صار الغرض مرضًا ، يحول بين المريض وبين أن يرى أن قناة السويس مصرية محفورة بسواعد مصرية على أرض مصرية ، وأن قرار تأميمها قرار وطنى مشروع وليس غنيمة مسروقة ولا نهيبة منهوبة ، وأن لغة الابتلاع و «الطرش «لغة سوقية فضلا عما فيها من عماء ضرير كان هو سبب فساد وإخفاق مؤامرة العدوان الثلاثى الذى ارتد مهزوما يجر أذيال خيبته وقواته تجلى ـ مجبرة ـ عن الأراضى المصرية !!

*****